تصادم تيمورتين

الصراع بين ابي جعفر المنصور وأبي مسلم الخراساني

لعلي ابراهم

يقف مدوّنو التاريخ الاسلامي وقفات طويلة حيال الخلاف المشهور الذي ثار بين ابي مسلم الخراساني وأبي جعفر المنصور وأسفر عن قتل أبي مسلم ، ويكثرون من تفصيل حوادثه واستقصاء اسبابه وسرد مختلف الروايات التي تدور حوله وتتصل به . وعذرهم في ذلك واضح مقبول . فقد كان الرجلان من الشخصيات النابهة المنيفة التي ارتبطت بتاريخها حوادث عصرها اشد ارتباط . وأبو جعفر هو رجل العباسيين الذي ثبّت لهم الخلافة وأرسى قواعد الملك وكان واحد عصره في قوة الشكيمة ومضاء العزيمة ونفاذ النظر وإحكام التدبير . وأبو مسلم نادرة من نوادر التاريخ وتاج غريب لاحتكاك الاسلام بالحضارة الفارسية ، وقد انحدر على الاغلب من صلب بزرجمهر بن البختكان وزير كسرى انوشروان فهو من اصل فارسي شرقت تلقيب فيه الروح الفارسية تحت غلالة الاسلام ، وتلمح في تصرفاته سطوة الارستقراطية وقسوتها ودهاؤها وتماثل الملك وعزة السلطان ، وقد استطاع بصادق حاسته وبارع قيادته وفائق تدبيراته ان يغير مجرى التاريخ الاسلامي ويضرب ملك بني مروان الضربة القاضية ويرفع على انقاضه بيت بني العباس ، وقد تمكن من انجاز ذلك قبل أن تبلغ سنه الخامسة والثلاثين

وقد كان في بني العباس طموح ودهاء وحرص على طيبات الدنيا ونزوع الى السلطة وخبرة جيدة بالدوافع الانسانية . وقد احسنوا تدبير الدعوة واختيار الارض الذراء الصالحة لاستنبات بذورها وعرفوا الفرصة المناسبة لظهورهم والجهر بدعوتهم . ولم تكن فيهم تلك النزعة الصوفية المشوبة بالزهد والعجز في الحياة السلبية التي تميز بها العلويون وجرّت عليهم الاخفاق في كل محاولة وصيرت تاريخهم سلسلة من المآسي المفجعة تستوجب الاسف وتستدر الدموع وجعلت الرجال المخلصين يقعدون عن نصرتهم لانهم لم يجدوا عندهم اباية الملك ولا صيانة المال ولا تكيدة

الحرب كما قال احد هؤلاء الرجال وهو الاحنف بن قيس . ولكن كان ينقص بني العباس القائد الحربي الموهوب المتدرب على وضع الخطط وتدبير المعارك وتنظيم القيادة ، وقد اصابوه في ابي مسلم . فلولا براعته الحربية وأساليبه العجيبة لافلتت منهم الفرصة ولما امكنهم ان ينتزعوا ملك الامويين وعلى رأسهم خليفة من اقدر رجالهم مثل مروان بن محمد الذي لم تنض الهزيمة من مزايا الحربية ولم يستنسخ التاريخ ان ينكر عليه همته العالية ومواهبه الممتازة

والذي يقدر اخلاق هذين الرجلين يعرف انهما شخصيتان قدر لهما ان يتصادما . فكلاهما انانيٌّ الى اقصى حدود الانانية لا يطيق ان يرى الى جانبه منافساً في نفوذه او قسيماً لهُ في ملكه ، وكلاهما مكافئ من قرعه الى اخمصه لا يعرف معنى للعواطف النبيلة او للمبادىء السامية اذا وقفت حجر عثرة في سبيل اغراضه ، فأبو مسلم لم يتورع عن الاسراف في القتل على الشبهة والغدر بأصدقائه وأعدائه على السواء ، والمنصور اول من قتل في الاسلام على الملك عمه وابن اخيه وأظهر قسوة بالغة في معاملته لابناء عمه العلويين

وقد كان أبوجعفر متبحراً في دراسة الفقه الاسلامي ، وكان لهذه الدراسة تأثير كبير في تكييف عقله وصقل تفكيره ، وقد مكنتهُ من ان يدرك في سهولة أوجه الشبه بين الاشياء دون ان تغيب عنهُ اختلافاتها الدقيقة ، وشحذت رغبته في البحث والتقصي والصبر على الشك والتريث في التفكير والاستعداد للمراجعة ، وقد كانت حاسة النظام والترتيب في نفسه أقوى من حاسة ادراك الجمال ، ولم يكن بطبيعته شديد الميل الى النساء والتهالك على اللذات او غالياً في التأنق ، ولم يكن شديد الولوع بالشعر فان أعجب بشيء منهُ فانما يعجب بالجانب التعليمي فيهِ وبما قد يتضمنهُ من مأثور الحكم وناضج التجارب وما يمكنهُ ان يستخرج منهُ درساً سياسيًّا او قاعدة عملية . وكما زادتهُ دراسة الفقه استقامة في التفكير واناة في اصدار الاحكام فكذلك طول صحبته للعلماء زادهُ بعداً عن الاسراف في الترف والانغماس في اللهو

وكانت نشأة أبي مسلم سياسية عملية خالصة ، وقد جمع بين براعة السياسي ومهارة القائد ، وكان ينظر الى ابي جعفر نظرة متأثرة بذلك الازدراء الخفي الذي يضمره رجال العمل وأبطال المبادين للعلماء ، وهذا الاحتقار المستور كثيراً ما يعمي أبعد الناس نظراً وأصدقهم فراسةً عن مشاهدة مزايا الغير وتقدير المواهب . ولذلك لم يتيسر لابي مسلم تقدير ابي جعفر تقديراً دقيقاً ولم يستطع وهو في ريعان نفوذه وعنفوان انتصاره ان يدرك ان هذا الرجل هو نابغة قومه وبائعة عصره ، ورجل العمل والكفاح في حاجة ماسة الى ان يكون ملمًّا من طراز أرسطو معلم الاسكندر ليوقر العلماء . ولم يلق أبو مسلم باله الى تأثير الحوادث في المنصور وكيف أفاد تجربة وخبرة . ولقد عاش أبو جعفر في الظل والخفاء وعاش في الضوء الساطع وعلتهُ الاقامة

في ذلك المنفى البعيد عن الحضارة بتلك القرية النائية المشرفة على الصحراء المترامية الحبيبة ان يطيل التفكير ويجيد وزن الامور . واذا كان الانبياء المرسلون يخرجون الى العالم من اعماق الوحدة والنواحي المهجورة فلا مانع من ان تكون تلك القرية الموحشة مدرسة لسياسيين الملهمين والسياسة ضرب من الفلسفة العملية تشترك فيه التجربة والتفكير والبداهة ، ومن نظر الى الحياة من أعاليها واعماقها وذاق حلوها ومرها لا تزدهف له ابتسامات الملق ولا تغير به الوشايات والنمائم لانهُ تعود مراجعة النفس وألف الحذر

وأول ما وقع في نفس ابي جعفر من أبي مسلم وكان لهُ تأثير في مستقبل العلاقات بينهما هو ما كان من رسول ابي مسلم لما قدم على ابي العباس السفاح عند بدأ ظهوره واستفلال امره فقد دخل عليه الرسول لتبليغ التحية وتقديم التهنئة ، وكان أبو العباس جالساً مع ابي جعفر وجماعة من وجوه بني العباس ، فسأل الرسول « أيكم ابن الحارثية » ؟ وكانت أم المنصور جارية بربرية اسمها سلامة . وكان اخوه ابو العباس اصغر منهُ سنًا ولكن ابراهيم الامام اوصى له بالخلافة وآثره بالاسبقية لان امه عربية حرة ، ولا نزاع في ان هذا التفضيل المقصود كان يحز في نفس ابي جعفر الذي كان يعرف قيمة نفسه ويرى انهُ احق بالخلافة واقدر على النهوض باعبائها من اخيه اللين المستضعف . وقد تكأت كلمة رسول ابي مسلم هذه القرحة في نفس ابي جعفر ، وهي في تقديره اهانة لا يغتفرها رجل مثله شديد الحقد الله المداورة

اوفده بعد ذلك السفاح الى خراسان ، وكان السبب الظاهر لذلك هو اخذ البيعة من ابي مسلم للسفاح ولابي جعفر من بعده ، وكان السبب الباطن هو الرغبة في اختبار احوال ابي مسلم وسبر غوره لان خيانة ابي سلمة الخلال ومحاولته نقل الخلافة الى العلويين عقب مجيء الاخبار بوفاة ابراهيم الامام اثارت شكوك العباسيين وجعلتهم يستريبون برجال دعوتهم ويحرصون على الاستيثاق من اخلاصهم وكان لهذه الرحلة تأثير كبير في نفس ابي جعفر فقد رأى بعينه قوة نفوذ ابي مسلم ولمس عن قرب سعة سلطانه ومدى سطوته وتعلق اصحابه به وتفانيهم في طاعته . ويظهر ان ابا مسلم لم يوفه حقه من الرعاية واستخف به بعض الاستخفاف ، واتفق اثناء وجود ابي جعفر هناك ان ابا مسلم أشنه في سليمان بن كثير كبير نقباء خراسان فدعاه اليه وقتله دون ان يستشير في ذلك ابا جعفر او يرجع الى رأي الخليفة . فلما عاد ابو جعفر اقضى الى اخيه بمخاوفه من استفحال نفوذ ابي مسلم وزين له الخلاص منهُ ، ولكن ابا العباس كان يستعظم الاقدام على ذلك ويخشى عواقبه فلم يعمل برأيه وارسله الى واسط ليتولى تضييق الحصار على ابن هبيرة ، وابلى ابو جعفر في هذه المهمة بلاءً حسناً حتى اضطر ابن هبيرة الى طلب الامان ، وجرت السفراء بينهما وجعل لهُ ابو جعفر اماناً وكتب به كتاباً مكث ابن هبيرة

يشاور فيه اطباءه ردحاً من الزمن حتى رضيه واطمأن اليه ، ثم اتخذه الى ابي جعفر فأنفذه الى ابي العباس فانفرد بامضائه . وكان من رأي ابي جعفر الوفاء لهُ بما اعطاه ولكن ابا العباس استشار ابا مسلم وكانت فرصة لتوهين رأي ابي جعفر فاشار على السفاح بقتله لان الطريق السهل اذا التيت فيه الحجارة فسد ولا يصلح طريق فيه مثل ابن هبيرة . وعارض ابو جعفر في ذلك معارضة شديدة فألح عليه ابو العباس حتى اضطر الى تنفيذ امره واستطاع ابو مسلم في هذه المعركة ان يتغلب على ابي جعفر ويبرزه ملوثاً بدم الغدر موصوماً بنقض ميثاق العهود

ووجه أبو العباس أبا جعفر عقب ذلك والياً على الجزيرة ، وكانت بينهُ وبين أهلها وقعات وحروب شديدة ، ثم صالحوه واستقام أهل الجزيرة وحدثت هدنة اضطرارية بين الرجلين انصرف خلالها كلٌّ منهما الى معالجة شؤون ولايته واخاد الفتن ورتق الفتوق ، وبعد انقضاء أربعة اعوام عاد الخلاف بينهما على أشده وذلك لان ابا مسلم كتب الى ابي العباس يستأذنهُ في القدوم عليه للحج ، وكان ما يرمي اليه من وراء ذلك هو أن يظفر بشرف ولاية الحج توطيداً لمركزه وتوسيعاً لنفوذه ، وأدرك ابو العباس قصده ورأى في ذلك ما يزيده علوًّا وتمكيناً ، وبعد اعمال الفكر للحيلولة دون ذلك كتب الى ابي جعفر يستحثهُ على ان يستأذنهُ في الحج حتى لا يطمع ابو مسلم في تقدمه عليه ، ورحب ابو جعفر بهذه الفرصة التي عنت لهُ لمراغمة خصمه فلبى الطلب وكتب الرسالة ، ولما علم ابو مسلم بذلك اضطغنها على ابي جعفر

وقدم ابو مسلم الانبار فأمر ابو العباس ان يتلقاه القواد واعيان الدولة وسائر الناس ، وأعظمهُ وأكرمهُ ، وقدم ابو جعفر من الجزيرة ، واتفق اثناء وجودهما بالانبار ، ان دخل ابو مسلم على السفاح وابو جعفر حاضر فسلم على السفاح ولم يسلم عليه فاسترعى ابو العباس التفاته الى ابي جعفر فقال ابو مسلم « اني قد رأيتهُ ولكن هذا مقام لا يقضى فيه حق غيرك » وهو تخلص لبق اكتفى به ابو العباس الذي كان لا يرى كبير بأس في بقاء ما بين هذين الفحلين متباعداً ، وعاد ابو جعفر يلح على أخيه في ضرورة القضاء على ابي مسلم وأغراهُ باغتياله ولكن أبا العباس كان لا يزال يتخوف الاقدام على ذلك

وسارا بعد ذلك في طريقهما الى الحج ، وكانت مباراة محتدمة ومنافسة مكشوفة استطاع ابو مسلم ان يكون فيها أبعد صوتاً وأخلب مظهراً من ابي جعفر ، فقد تحرى استصلاح الطريق وحفر الآبار وكسو الاعراب واغدق عليهم العطايا وتهدهم بالطعام ، ولم يكن ابو جعفر بطيئة ميالاً الى الجود واجتذاب القلوب وكان يؤثر على الدوام ان يكون مختفي الجانب مرهوب السطوة . ولما صدرا من الحج زامت اليهما الانباء بوفاة الخليفة ابي العباس فدعا ابو جعفر الناس الى البيعة ، وبايعهُ ابو مسلم بعد تلكؤ يسير ، وأظهر ابو جعفر لابي مسلم تخوفه من شرّ عمه عبد الله

ابن علي وشيعته . ولما اخذ عمه البيعة لنفسه اشار ابو جعفر على ابي مسلم بالتوجه الى قتاله لان عامة جنده ومن معهُ من خراسان . وكان ابو مسلم يحاول جهده الاسراع في العودة الى خراسان ويؤثر ان يخلي ما بين ابي جعفر وعمه عبد الله ، وكانت الحجة التي أبداها للمنصور هي ان امر عبد الله قليل الخطر وان أمر خراسان أعظم شأناً وأهول خطراً مما يستدعي بقاءهُ هناك ، ولكن أبا جعفر ألحَّ عليهِ وأغرى بعض رجاله بتحويله عن رأيه حتى قبل اخيراً التوجه لاخماد حركة عبد الله ، وقد استلزم القضاء عليها مجهود سنة أشهر انتصرت في نهايتها حركات ابي مسلم الموفقة القوية على حركات عبد الله الضعيفة ، وفي خلال هذه المدة أتم ابو جعفر تدبير الخطة للقضاء على ابي مسلم . ولم يكن ابو جعفر يجهل حاجته الى قائد عظيم ووزير قدير مثل أبي مسلم والدولة في طالعة امرها والمتربصون بها كثيرون والطامعون فيها لا يخلون من قوة وبأس، وكان يعرف ان ابا مسلم هو مدبر المؤامرات الناجحة ورأس الخطط المثمرة ولكنهُ وازن بعقله الحسَّاب بين الضرر والمنفعة ولما قطع بالرأي لم يتردد في تنفيذه لان الرجل كان لا يعرف الهوادة ولا تغلبهُ العاطفة في مواقف الخطورة ومواطن الجد . وقد كان ابو مسلم كلما سما مقامهُ وطغى نفوذه اصبح خطراً كبيراً على نفوذ الخليفة ، فليس هو الآن منتدب بيته ورائع دعائم ملكه والحاجز المنيع ضد الثورات ، وانما هو مناظر مخوف الجانب يستطيع ان يفسد عليهِ امره ويسلبهُ ملكه . وكان المنصور قد حكم منذ زمن على ابي مسلم بالاعدام بينهُ وبين نفسه وهو حكم انتجهُ التفكير الهادىء والمنطق الذي لا يلين ولا يرحم وزادتهُ الايام ايماناً بصحة ذلك الحكم وضرورته

وكان ابو مسلم خلال اداء تلك المهمة التي اناطها به المنصور — وقبلها مضطرًّا كارهاً — ناقماً على المنصور ، ولم يستطع ان يقمع استخفافه به وموجدته عليهِ ، فكان يأتيهِ منهُ الكتاب فيقرأه ، ثم يلوي شدقه ويرمي بالكتاب الى صديقه الحميم ابي نصر (مالك بن الهيثم) فيقرأهُ ويضحكان استهزاء . وقد ساء ذلك القائد البارع الحسن بن قحطبة فارسل الى ابي ايوب الموريانى وزير المنصور رسالة شفوية خاصة ضمنها ارتيابه بابي مسلم

وكان المنصور يحاول الآن — وقد اتوى ازاحة ابي مسلم من طريقه ألاَّ يبدو قتله في صورة الغدر الاثيم والخيانة الصارخة ، والوسيلة الوحيدة لذلك هي ان يستفز أباه ويثير غضبه حتى يخرج عن طوقه ، ويجد المنصور اذ ذاك مسوغاً لقتله امام اتباعه . فلما انهزم عبد الله بن علي وكتب ابو مسلم الى المنصور بذلك ارسل المنصور رسولاً من قبله لاحصاء الغنائم وتحصيل الاموال ، وكان يعلم ما في ذلك من الاساءة الى ابي مسلم الذي تعود الاستئثار بالسلطة المطلقة بلا رقيب ولا حسيب . فلما قدم عليهِ الرسول وعلم بمهمته لم يستطع ان يكظم غضبه

وبسط لسانه في ابي جعفر وهمَّ بقتل الرسول لولا تدخل اصحابه . فعاد الرسول الى ابي جعفر وأخبره بذلك . وكان المنصور يحاول جهده ان يحول بينه وبين خراسان فأرسل اليه رسولاً آخر معهُ كتاب يخبره فيه بأنهُ قد ولاه مصر والشام وأنها احسن لهُ من خراسان وان يوجه الى مصر من يشاء من قبله ويقيم هو بالشام ليكون قريباً من الخليفة . فلما جاء هذا الكتاب عرف غرض ابي جعفر وغضب واعتزم المضي الى خراسان وأقبل من الجزيرة بجماً على الخلاف . والواقع ان ابا مسلم كان قد تولَّد السلطة وآن يتطلع برأيه ويتصرف بحسب هواه وان يأمر فيطاع ويستشار ويستصح فيعمل بمشورته ويؤخذ بنصيحته ، ولم يكن يستطيع الآن ان يصالح ويتملق ويخطب الود ويلتمس الرضى وغير غريب أن يتحدى ويغاضب . ومن الصعب على الانسان ان يصل الى ذروة السلطة المطلقة والسيطرة الكاملة على الناس ثم يتنازل عن ذلك كله في يسر وسهولة وعند اول اشارة ، وقد تحوَّل الامر بأبي مسلم من عدم الاكتراث لأبي جعفر الى العناد والاصرار ومن العناد والاصرار الى التحدي الظاهر والمخالفة الصريحة وقد زاده الانتصار الاخير اعتزازاً برأيه وادلالاً بمكانته وشدة شعور بشخصيته ، وكان المنصور من ناحية اخرى يريد النظام ويأبى الفوضى في أية صورة من الصور ومثل هذا الرجل لا يطيق ان يرى منافساً له في سلطانه ولا يسمح ان يعيش في ظل ملكه الوريف معارضاً واحداً هادىء البال مصون الدماء

وخرج ابو جعفر من الانبار الى المدائن وكتب الى ابي مسلم في المصير اليه . فكتب اليه ابو مسلم وقد نزل الزاب وهو على الرواح الى طريق حلوان « انهُ لم يبق لامير المؤمنين اكرمهُ الله عدوٌّ الاَّ أمكنهُ الله منهُ ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان ان أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان ارضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الاَّ ان تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنًّا بنفسي »

ولما وصل هذا الكتاب الى ابي جعفر كتب الى ابي مسلم « لقد فهمت كتابك وليست صفتك صفة اولئك الوزراء النششة ملوكهم الذين يشئون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم قائما راحتهم في انتشار نظام الجماعة فلمَ سويت نفسك بهم وانت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الامر على ما أنت به ؟ وليس مع الشريطة التي اوجبت منك سماع ولا طاعة واسأل الله ان يحول بين الشيطان وتزغاته وبينك فانهُ لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طيبه من الباب الذي فتحهُ عليك » واختار ابو جعفر من رجاله ابا حميد المروروزي ليحمل الكتاب الى ابي مسلم ورسم له الخطة التي يسلكها بعد تقديم الكتاب وهي ان يبدأ فيكلم

ابا مسلم بألين كلام ويلوّح له بالوعود ويمنيه الاماني ويستفرغ في ذلك جهده ويحذره عاقبة البغي فان أصرّ على المخالفة وصرّح بالعصيان ويئس منهُ يبلغهُ هذه الرسالة الشفوية وهي ان امير المؤمنين يقول له « لست للعباس ولا لبني من محمد ان مضيت مشاقًا ولم تأتني ان وكلت امرك الى احد سواي وان لم أنل طلبك وقتلك بنفسي ولو خضت البحر لخضتهُ ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى اقتلك أو أموت قبل ذلك » واوصى المنصور بن حضرهُ من بني هاشم بان يكتبوا الى أبي مسلم يعظمون امره ويشكرون ما كان منهُ ويحذرونهُ عاقبة الغدر ويأمرونهُ بالرجوع الى امير المؤمنين وان يلتمس رضاهُ

***

وسار ابو حميد في جماعة من اصحابه ممن يثق بهم حتى قدموا على ابي مسلم بحلوان ، فدخل ابو حميد ومعهُ اصحابه ودفع الكتاب الى ابي مسلم ، وقال لهُ ان الناس يبلغونهُ عن امير المؤمنين ما لم يقلهُ وخلاف ما عليهِ رأيه فيهِ حسداً وبغياً يريدون ازالة النعمة وتغييرها ونصح لهُ ان لا يفسد ما كان منهُ ، فكبر هذا الكلام على ابي مسلم لان أذنه لم تعود سماع النصائح فالتفت الى ابي حميد وقال لهُ في كبرياء وأنفة « متى كنت تكلمني بمثل هذا الكلام » فقال لهُ أبو حميد « لقد دعوتنا الى طاعتهم أفنريد حين بلغنا منتهى أملنا ان تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتكم فاقتلوني »

وكان الى جانب أبي مسلم صديقه الحكيم مالك بن الهيثم ، فأقبل عليهِ وقال « أما تسمع ما يقول هذا ! ما هذا بكلامهِ يا مالك »

فقال لهُ مالك « لا تسمع كلامه ولا يهولنك هذا منهُ ولعمري لقد صدقت ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منهُ فامض لامرك ولا ترجع فوالله ان أتيته ليقتلنك وقد وقع في نفسهِ منك شيء لا يأمنك أبداً »

وأراد ابو مسلم ان يخلو بنفسهِ فصرف القوم وأخذ يفكر ويقلب الامر على وجوههِ ، ولما أنبههُ التفكير استدعى بزك وكان موضع ثقته وكاتم سره . فلما أقبل نحوه نزك التفت اليهِ ابو مسلم وهو يحاول ان يخفي اضطراب خواطره ويتظاهر بقلة الاهتمام وقال لهُ « يا نزك اني والله ما رأيت طويلاً أعقل منك فما ترى ؟ فقد جاءت هذه الكتب وقد قال القوم ما قالوا » فقال لهُ نزك « لا أرى ان تأتيه وأرى ان تأتي الري فتقيم بها فبصير ما بين خراسان والري لك وهم جندك ما يخالفك احد ، فان استقام لك استقمت لهُ وان أبى كنت في جندك وكانت خراسان من ورائك ورأيت رأيك » واطمأن أبو مسلم الى هذا الرأي وعوّل على الاخذ بهِ

ودعا أبا حميد وقال لهُ « ارجع الى صاحبك فليس من رأيي ان آتيه »

فقال لهُ أبو حميد « اوقد عزمت على خلافه ؟ فقال لهُ أبو مسلم « نعم »

فقال لهُ أبو حميد « لا تفعل » فقال ابو مسلم وقد بدت على وجهه علامات الاصرار « ما أريد ان القاه »

***

وهنا لم يجد ابو حميد بدًّا من ان يبلغهُ رسالة ابي جعفر الشفوية . فلما سمعها ابو مسلم وجم طويلاً ، وأخذت تتكشف لهُ طبيعة الرجل الذي يريد مخالفته وكأنما رفع عن بصره الغطاء في تلك اللحظة وأدرك انهُ أفرط في تحدي أميره ، وكان ابو مسلم يعلم جيد العلم ان سلطان ابي جعفر قائم على دعامتين قويتين ليس من السهل هدمهما وهما قوة الدين وشرف النسب . وقد حاول ابو مسلم من قبل ان ينتزع جانباً من هذا الشرف ويخلعه على نفسه وذلك بادعائه مرة انهُ من ولد سليط الذي كان ينسبهُ الامويون الى عبد الله بن العباس وبمحاولته مرة أخرى ان يخطب الى المنصور عمته أمينة بنت علي . وراعهُ هذا التهديد المكشوف الذي يشف عن صدق العزيمة والاستهانة بالخطر ، وكان ابو جعفر عند ما حاول استفزاز ابي مسلم قد احتاط للامر وأخذ يحرك المنافسة والحسد في قلوب مناظري ابي مسلم وحاسديه ، فكتب الى ابي داود خليفة ابي مسلم على خراسان يوليهِ امر خراسان ما بقي ، فكتب ابو داود الى ابي مسلم من رسالة انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله واهل بيت نبيه صلعم ، فلا نخالفنَّ أمامك ولا نرجعنَّ الاَّ باذنه وواقاه الكتاب وهو في تلك الحال من تبلبل الفكر وتضعضع العزم فزاده همًّا ورعباً ، وهنا ارتبكت اعصاب الرجل وتحللت عزيمته فاستدعى رسول ابي جعفر وصديقه مالكاً وقال لهما « اني قد كنت معتزماً المضي الى خراسان ثم رأيت ان اوجه ابا اسحق الى امير المؤمنين فيأتيني برأيه فانهُ من اثق به» ولما قدم رسوله على المنصور تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب وقال له ابو جعفر اصرفه عن وجهه وذلك ولاية خراسان وأجازه فرجع ابو اسحق الى ابي مسلم وقال له انهُ لم يجد من القوم ما ينكره وانهم معظمون لحقه واشار عليه ان يرجع الى امير المؤمنين فيعتذر اليه مما كان . وكان ابو جعفر قد نجح في ان يهز ثقة الرجل بنفسه وان يعطل قوة رأيه القاطع فأجمع على العودة الى الخليفة لانهُ لم يجد بدًّا من ذلك وحاول نيزك ان يثنيه عن الرجوع ولكن ابا مسلم كان يشعر بقوة قاهرة تجيره على الذهاب ، ولما أطال عليه نيزك مثل ابو مسلم قائلاً

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فقال له نيزك وقد تجزع اقناعه « اما وقد عزمت على هذا فاحفظ عني واحدة ، اذا دخلت عليه فاقتلهُ ثم بايع لمن شئت فان الناس لا يخالفونك » وكتب ابو مسلم الى ابي جعفر يخبره انهُ منصرف اليه ، ولما طوى اكثر الطريق تلقاه رجل من قواده وحذره ونصح له بالعودة فاشتدت به المخاوف وكثرت هواجسه وخايله فكرة العودة فتردد وتلبث ولكن الشكة المحكمة لم تمكنهُ من الافلات واحس بشدة وطأتها وتجزه عن النجاة فاستسلم للقضاء ، وكان المنصور الذي لا تفد حيله يدس عليه رجالاً ليبلغوه ما يخفي عنهُ الوساوس ويوحي اليه الطمأنينة ، ولما شارف المدائن امر المنصور الناس فتلقوه واحتفى بمقدمه القواد والرؤساء واعيان العباسيين ، ولما دخل المدائن كان النهار قد ادبر وارخى الليل سدوله وجلس ابو جعفر ينتظر قدومه وقد حفهُ صمت عميق ووقار رهيب ، ودخل ابو مسلم على المنصور وسلم والتقى الرجلان وجهاً لوجه على ضوء الشموع ، وكان احدهما وهو المنصور اسمر اللون رقيق السمرة طويلاً نحيفاً خفيف العارضين عليه ابهة الملك وجلال النسك ، وكان الآخر — وهو ابو مسلم — قصيراً اسمر احور العين عريض الجبهة وافر اللحية ساهم الوجه شارد الفكر يحاول جهده ان يتماسك ويتجلد ، ولم يغب عن عين المنصور ما يعانيه ابو مسلم من الاضطراب الخفي فتلطف معهُ ورفق به واحتفى بمقدمه وتهلل في وجهه المهيب الدائم العبوس تلك الابتسامات التي يتخذها الساسة قناعاً يستترون به مبهم النيات وخفيّ الاغراض . ولم يطل قيام ابي مسلم فقد أذن له الخليفة بالانصراف لينفض عنهُ غبار السفر ويرتاح من وعثائه ، وقد حاول كل منهما خلال تلك اللحظات القصار التي تفيأها معاً ان يتغلغل بنظراته الحادة الى سريرة صاحبه ، وخرج أبو مسلم وقد ذهب به الفكر كل مذهب ، ولعله لم يشعر تلك الليلة بما حفلت به المدائن من اصوات البشائر وبما اقيم لقواده ورجال حاشيته من الحفلات والولائم ، وأوى الى فراشه مبكراً ، ونستطيع ان نتصور ابا مسلم في تلك الليلة متململاً فوق فراشه لا يقر لهُ قرار ولا يهدأ لهُ بال ، ولم تستطع مظاهر الحفاوة والتكريم التي قوبل بها ان تبدد مخاوفهُ وتنفي عنهُ الافكار السوداء وأخذت كلمات التحذير التي قالها له صديقه ابو نصر وصاحبهُ نيزك تدوي في اذنه دوياً متصلاً وترن رنيناً محزناً ولعله اخذ يعجب من نفسه وكيف جاء الى المدائن وسعى الى حتفه وكيف خذلتهُ شجاعتهُ واستولى عليه الرأي وهو الجندي الباسل والسياسي الخطير ، وكان يشعر بعزلته وأنهُ وحيد في عالم غريب وان الخطر الذي يهدد حياته قد صار على كثب منهُ ، ولما مضى الهزيع الاول من الليل هدأت الحركة في المدائن وهمدت الاصوات ، وران الكرى على الجفون ولكن بقي رجلان ساهرين احدهما ابو مسلم الذي كان يفكر في مصيره وما تخبئهُ

لهُ الاقدار ويخشى ان يغدر الخليفة بأقدر رجاله وأعقل وزرائه ، والآخر المنصور وقد اخذ يلوم نفسهُ لانهُ لم يغتنم الفرصة ويقتل ابا مسلم عند ما ملأ عينيهِ منهُ ويريح نفسهُ ويشفي غله وصار يستطيل الليل ويرقب تباشير الصباح في قلق وحذر

***

ولما اقبل الصبح استدعى المنصور اربعة من رجال حرسهِ الاشداء وعرفهم بالمهمة الموكولة اليهم فهالهم الامر ولكنهم لم يجترئوا على المخالفة وأوصاهم بالوقوف خلف الرواق وان يبرزوا اذا ارتفع صوتهُ وصفق بيديهِ ويقتلوا ابا مسلم

وأصبح ابو مسلم متعباً حزيناً لما عاناه من ارق وتسهيد وما ساوره من افكار وهموم وكانت بينه وبين عيسى بن موسى ابن اخي المنصور صداقة ومودة فآثر منزله وتناول عنده الغداء وفي خلال الحديث انشد عيسى

سيأتيك ما افنى القرون التي مضت وما حل في اكناف عاد وجرهم
ومن كان انأى منك عزًّا ومفخراً وانهد بالجيش اللهام الرعرم

فالتفت اليهِ ابو مسلم وقد امتقع وجهه وقال له « هذا مع الامان الذي اعطيت » فقال لهُ عيسى اعتق ما املك ان كان هذا لشيء من امرك وما هو الا خاطر أبداه لساني « فقال ابو مسلم فبئس الخاطر والله اذن » وبعد قليل وافاه رسول الخليفة يدعوه الى الحضور فقال له عيسى لا تعجل بالدخول حتى احضر وأدخل معك ، فابطأ عيسى بالوضوء ومضى ابو مسلم فلما هم بالدخول على الخليفة جرده البواب من سلاحه فدهش لذلك ، ولما مثل بين يدي الخليفة شكا اليهِ ما صنع به فطيب المنصور خاطره واقبل بعد ذلك عليهِ يعاتبهُ ويحصي عليهِ ذنوبه ويدعي على زلاته وشدد النكير على سلوكه نحوه وكيف كان يتقدمهُ في طريق الحج وكيف كان يكتب اليهِ فيدأ بنفسهِ وكيف أقدم على قتل سليمان بن كثير مع بلائهِ في دعوتهم وكان ابو مسلم يرد على ذلك بكياسته المعهودة ، ولما اكثر عليهِ المنصور أخذته العزة فقال لهُ « لا يقال لي هذا بعد بلائي في دولتكم وما كان مني » فغضب المنصور وقال لهُ « لو كانت امة مكانك لأجزت ناحيتها اما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلاً » وسبهُ بعد ذلك وذكره كيف تطاول الى خطوبة عمته وادعى انهُ من ولد سليط ، وغلت مراجل المنصور وافتقت في نفسهِ شهوة الانتقام ولاحت في عينهِ بوارق الغضب والحقد ولوائح الغدر وأدرك ابو مسلم خطورة الموقف فأخذ يحرك يده ويقبلها ويحاول تهدئة ثائرته ، وتزايد غضب المنصور وصفق بيديهِ فبرزت

الرجال بالسيوف ولم ترد أول ضربة على ان قطعت حمائل سيفه فقال « يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك » فقال له المنصور « لا أبقاني الله اذن وأي عدو اعدى لي منك » وصاح برجاله « اضربوا قطع الله ايديكم » ولما توالت على ابي مسلم الطعنات خارت البقية الباقية من شجاعته والطوى إباؤه وارتجف من الموت هذا الرجل الذي اذاق الالوف طعم الموت وجرعهم مرارته وصار يلتمس العفو في ذلة وضراعة حتى عجب المنصور وقال له « العفو وقد اعتورتك السيوف » .

ووقف المنصور امام فريسته كالوحش الضاري ينشد

زعمت ان الدين لا ينقضي فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقي بها امرّ في الحلق من العلقم

ودخل بعد ذلك عيسى بن موسى وسأل عن ابي مسلم فقال له المنصور « ها هو ذاك في البساط فأبدى عيسى اسفه وتفجعه وذكر اخلاص ابي مسلم وطاعته فقال له المنصور « خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك او سلطان او امر او نهي مع ابي مسلم » وامر المنصور فحملت بقايا ابي مسلم ورمى بها في دجلة وبعث الى عدة من قواده بجوائز سنية واعطى جميع جنده حتى رضوا ورجع اصحابه وهم يقولون لقد بعنا مولانا بالدراهم

ومرّت على هذه الحادثة اعوام وبينما كان المنصور ذات ليلة يسمر مع جماعة من خاصته قال لهم : « ثلاثة كنّ في صدري شفى الله منها كتاب ابي مسلم اليّ وانا خليفة عافانا الله واياك من السوء ، ودخول رسوله علينا وقوله ايكم ابن الحارثية وضرب سليمان بن حبيب ظهري بالسياط »

***

وطوى عصر المنصور ودارت الايام دورتها وضرب الدهر ضرباته وتسنم عرش الخلافة احد احفاده وهو عبد الله المأمون وجلس ذات ليلة يسمر مع رجال حاشيته ودار الحديث على أبطال التاريخ فقال لهم اجل ملوك الارض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدول الاسكندر المقدوني واردشير وابو مسلم الخراساني !

وقد كان قتل ابي مسلم ضرورة سياسية ومحاولة جبارة قام بها المنصور لصد تيار النفوذ الفارسي واعادها بعده الرشيد بايقاعه بالبرامكة وكررها المأمون باغتياله الفضل بن سهل ولكنهم لم يوفقوا في تلك المحاولة الشيقة التوفيق كله لان تغير مجرى الحوادث في كثير من الاحوال من وراء قدرة الرجال ولو كانوا من طراز المنصور والرشيد والمأمون